المحاضرة الرابعة

مفهوم الخطاب :

الخطاب : من الألفاظ التي شاعت في حقل الدراسات اللغوية ولقيت إقبالًا واسعًا من قبل الدارسين والباحثين، فالخطاب ليس بالمصطلح الجديد ولكنه كيان متجدد يولد في كل زمن ولادة جديدة تنسجم وخصوصية المرحلة ، وهو كمفهوم لساني يمتد حضوره إلى النصوص المتعاليات من شعر جاهلي وقرآن كريم، وكذا في الدراسات الأجنبية، حيث تمثل الأوديسا والألياذة نماذج خطابات متفردة بغض النظر عن نوع الخطاب .

ورغم قدم جذور هذه الكلمة في الثقافة العربيّة من حيث أصولها المقترنة بالنطق، فإنّ استخداماتها المعاصرة، بوصفها مصطلحًا له أهميته المتزايدة تدخل بمعانيها إلى دائرة" الكلمات الاصطلاحيّة التي هي أقرب إلى الترجمة، والتي تشير حقولها الدلالية إلى معانٍ وافدة، ليست من قبيل الانبثاق الذاتي في الثقافة العربيّة.

وقد بدأ هذا المصطلح يرتسم في مناخه الدلاليّ بعد ظهور كتاب (فرديناند دي سوسير) (محاضرات في اللسانيات العامة) لما فيه من مبادئ أساسيّة ساهمت في وضوح مفهوم الخطاب ومن بين التعاريف التي قدمت للإحاطة بالمصطلح والتي تبدو في عمومها تعاريف جزئيّة تضيء جوانب مفردة من هذا المفهوم ، إلّا أنّ تقديمها معًا لا ينم عن الاختلاف الموجود بينها بقدر ما ينم عن تكامل متدرج يصبو إلى الإفصاح عن ماهية الخطاب ككل لساني أدبي .

وقد اختلفت هذه التعاريف باختلاف المنطلقات الأدبيّة واللسانية المقاربة للمفهوم، ومن بينها نذكر :

_ الخطاب مرادف للكلام أي الإنجاز الفعلي للغة بمعنى" اللغة في طور العمل أو اللسان الذي تنجزه ذات معينة كما أنه يتكون من متتالية تشكل مرسلة لها بداية ونهاية.

_ الخطاب يتكون من وحدة لغوية قوامها سلسلة من الجمل، أي رسالة أو مقول، وبهذا المعنى يلحق الخطاب بالمجال اللسانيّ؛ لأنّ المعتبر في هذه الحالة هو مجموع قواعد تسلسل وتتابع الجمل المكونة للمقول، وأول من اقترح دراسة هذا التسلسل هو اللغوي الأمريكي (سابوتي زليق هاريس).

_ الخطاب هو الوسيط اللسانيّ في نقل مجموعة من الأحداث الواقعيّة والتخيليّة التي أطلق عليها (جينيت) مصطلح الحكاية.

_الخطاب في كلّ اتحاهات فهمه، هو اللغة في حالة فعل، ومن حيث هي ممارسة تقتضي فاعلًا . وتؤدي من الوظائف ما يقترن بتأكيد أدوار اجتماعيّة معرفية بعينها.

_ والخطاب حسب (بنفنيست)" هو كلّ تلفظ يفترض متحدثًا ومستمعًا، تكون للطرف الأول نية التأثير في الطرف الثاني بشكل من الأشكال.

_ ومن ثم يميز(بنفنيست) بين نظامين للتلفظ هما الخطاب والحكاية التاريخيّة، هذا التمييز ينشأ من كون الخطاب لا يقتصر في مفهومه على أنّه وحدة لسانيّة مفرغة، بل تتعالق هذه الوحدة مع الثقافة والمجتمع. فالخطاب قوامه جملة الخطابات الشفويّة المتنوعة ذات المستويات العديدة وجملة الكتابات التي تنقل خطابات شفوية أو تستعير طبيعتها وهدفها شأن المراسلات والمذكرات والمسرح والأعمال التعليميّة، يختلف عن الحكاية التاريخيّة في مستويين اثنين هما الزمن وصيغ الضمائر.

والمقصود بالحكاية التاريخية هنا ليس الحكاية التي تنقل حدثًا تاريخيًا_ فذلك مما يمكن اعتباره خطابًا_ وإنّما هي كلّ حدث ما ينقل بطريقة تقريريّة هدفها هو تاريخيّة الحدث في حد ذاته.

إنّ النظر الملقى على النصّ من وجهة تبنيه لغويًا تجعل منه ملفوظًا، وإنّ دراسة لسانيّة لشروط إنتاج هذا النص تجعل منه خطابًا .

وإذا كان الخطاب حسب التعريف الأول نوع من التناول اللسانيّ للغة" فلإنّ اللّغة في الخطاب لا تعدّ بنية اعتباطية بل نشاطًا لأفراد مندرجين في سياقات معينة...، وبما أنّه يفترض تمفصل اللّغة مع معايير غير لغويّة، فإنّ الخطاب لا يمكن أن يكون موضوع تناول لسانيّ صرف.

فالخطاب " ليس تجمعًا بسيطًا أو مفردًا من الكلمات(أو الكلام بالمعنى الذي قصد إليه دي سوسير) ولا ينحصر معناه في قواعد ذات قوة ضابطة للنسق اللغويّ فحسب، إنّه ينطوي على العلاقة البينية التي تصل بين الذوات، ويكشف عن المجال المعرفيّ الذي ينتج وعي الأفراد بعالمهم، ويوزع عليهم المعرفة المبنية في منطوقات خطابيّة سابقة التجهيز."

وحاليًا اقترن مصطلح" الخطاب" في الدراسات العربيّة بدلالات جديدة" تشير إلى آفاق واعدة من النظر العقليّ والرؤى المنهجيّة، كما تشير إلى أدوات معرفيّة تعين على فهم الواقع في ممارسته الخطابية المختلفة...، وأن أية نظرية عن الخطاب بعامة تتضمن نظرية عن المجتمع بالضرورة".

وعمومًا يمكن القول أنّه" إذا كان الخطاب هو ما تؤديهاللّغة عن أفكار الكاتب ومعتقداته، فإنّه لا بد من القول إنّ الخطاب يقوم بين طرفين أحدهما مخاطِب وثانيهما مخاطَب، والخطاب عمومًا عبارة عن وحدات لغويّة تتسم بـ:

- **التنضيد:** ما يضمن العلاقة بين أجزاء الخطاب، مثل أدوات العطف وغيرها من روابط.
- **التنسيق** : مما يحتوي تفسير للعلائق بين الكلمات المعجميّة.
- **الانسجام:** وهو ما يكون من علاقة بين عالم النصّ وعالم الواقع ."